

وحي النسيب

في شعر شوقي

بقلم

أحمد محمد الحوفي
بدار العلوم العليا

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

إلى الأستاذ الأديب
حامل مشعل التجديد
"أحمد زكي أبو شادي"
ذكرى أول كتاب
أول قراءة
"خطرة صريح"
١٩٣٤/٤/١٠

وحي النسيب

في شعر شوقي

بقلم

أحمد محمد الحوفي

بدار العلوم العليا

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ – ١٩٣٤ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

الاهداء

الى دار العلوم العليا

مقدمه

بقلم الأستاذ المربى محمد مهدى علام

أستاذ التربية ومدير قسم المحاضرات بدار العلوم العليا

وهذا قسط آخر من الأدب تؤديه « دار العلوم » على يد طالب من أنبغ طلابها ، وابن من أبر أبنائها ؛ هو « أحمد محمد الحوفى افندى »

فنى مستهل هذا العام أخرج تلميذنا النابه « محمد بديع شريف افندى » كتابه « فى النقد الأدبى » والآن يخرج لنا « الحوفى » بحثه عن « وحى النسيب فى شعر شوقى » ، وكلاهما ثمرة من ثمار قاعة المحاضرات فى « دار العلوم » .

لقد كان الأدب العربى وديعة فى ذمة « شوقى » حقبة طويلة من الزمن واليوم أصبح « شوقى » أمانة لدي الأدب العربى .

ومن أحق من (دار العلوم) ـ وهى دار الحكمة ، وأبناؤها سدنة الأدب — برعى هـذه الأمانة ، وحسن الاحتفاظ بها ، والوصول بها إلى مكانها اللائق بها ؟ ؟ ؟

لقد أحب شوقى « دار العلوم » وأخلص لها ، فليس عجيبا أن تحب دار العلوم (شوقى) وتخلص له . ولقد كان أبناؤها — أساتذة وطلابا — أصدقاء شوقى ورواة شعره ونقاد أدبه ، ولقد

قدر لهم ذلك فنحهم قلبه وتغنى بهم فى شعره .

استمع إليه يحيي دار العلوم فى عيدها الخمسينى الذى أقيم فى يوليه سنة ١٩٢٧

اتخذت السماء يادار ركنا   وأويت الكواكب الزهر سكنا

وجمعت السعادتين فباتت   فيك دنيا الصلاح للدين خدنا

. . . .

أنت كالشمس رفرفا ، والسماكيـ   ن رواقا ، وكالمجرة صحنا

لو تسترت كنت كالكعبة الغر   اء ذيلا من الجلال وردنا

إن تكن للثواب والبر دارا   أنت للحق والمراشد مغنى

***

ثم استمع إليه يحيي أبناءها ، ويحيي فيهم بيانهم المبين وصناعتهم النبيلة

ياعكاظا حوى الشباب فصاحا   قرشيين فى المجامع لسنا

. . . .

علموا بالبيان لا غرباء   فيه يوما ولا أعاجم لكنا

***

فتية محسنون لم يخلفوا العلـ   ـم رجاء ولا المعلم ظنا

***

أو فاستمع إليه يذكر مؤسس دار العلوم « المرحوم على باشا مبارك »

قل لها يا ابنة (المبارك) إيه   قد جرت كاسمه أمورك يمنا

. . . .

أدرى إذ بناك أن كان يبنى   فوق أنف العدو للضاد حصنا؟

حائط الملك بالمدارس أن شئـ   ـت ، وإن شئت بالمعاقل يبنى

***

ولعل أفضل ما وصف به أبناء « دار العلوم » وأصدق تصويراً لولائهم للشعر والأدب قوله

ياشبابا سقونى الود محضا   وسقوا شانئي على الغل أجنا

كلما صار للكهولة شعرى   رددوه فصار أمرد لدنا

أسرة الشاعر الرواة وما عنـ   ـوه ، والمرء بالقريب معنى

هم يضنون فى الحياة بما قا   ل ويلفون فى الممات أضنا

واذا ما انقضى ، وأهلوه لم يعـ   ـدم شقيقا من الرواة أو ابنا

* * *

هذا بعض ماقاله شوقى فى دار العلوم ، ورسالة (الحوق) مما يجب أن تقوله دار العلوم فى شوقى : ولو لم يقل شوقى فينا ما قاله لكنا نقول فيه ما نقوله اليوم : فحبنا لشوقى ليس صدى لحبه إيانا — ولو فعلنا ما كان علينا من ملام — ولكننا نحبه لأنه

جدير بحبنا وتقديرنا . وإخلاصنا لشوقي ليس رهينا باخلاصه لنا ـ ولو فعلنا ما كان من تثريب ـ ولكننا أخلصنا لشوقي إخلاصنا للأدب القويم .

وحسبي فى التدليل على ماأقول أن فى أبناء دار العلوم من ينقدون شعر شوقي نقدا مرا ، ومن يضنون عليه بما يراه اخوانهم حقا صريحا له . فهؤلاء وأولئك يحبون شوقي ويقدرون حبه لمعهدهم ولكن كل فريق يعلن رأيه فى صراحة الواثق برأيه المعتمد ببحثه لا يفتن أولئك اطراء شوقي لهم ، ولا يغرى هؤلاء بتغيير آرائهم مايسمعونه من ثنائه عليهم ، ولا ما يشعرون به من جو الأجلال الذى عاش فيه شوقي داخل (دار العلوم) وخارجها .

ولقد كان لقاعة المحاضرات فى دار العلوم جولة منذ عامين أثمرت كتابا قيما هو « مهمة الشاعر فى الحياة » لتلميذنا العبقرى وصديقنا الكريم الأستاذ « سيد قطب » الذى كان يمثل المدرسة المعارضة لشوقي فى دار العلوم ، ولقد كتبت فى مقدمة ذلك الكتاب أننى أخالف المؤلف فى رأيه فى شوقي ولكننى أوافقه على أن يقول فى شوقي رأيه هو : ولو أن دار العلوم لم تصدر الا عن رأى واحد فى شوقي أو غيره من الشعراء والبحوث لاتهمتها بالتقليد والضعف ولكنى أجل هذا المعهد عن هذه الرذيلة الأدبية . ولئن كان « سيد قطب » لسان المدرسة المعارضة لشوقي ان « الحوفى »

لسان المدرسة المؤيدة له . وأنا أحيي المدرستين ، وأشجع الحلبتين على أني أميل الى أحد الرأيين فلا أقتصر على نسيب شوقي - وهو وحده مصدر شاعرية متدفقة وعنوان أدب بارع — ولكني أقولها في غير وجل ولا استحياء ، كلمة حق أدين بها : هي أن شوقي « شكسبير » مصر .

أما بعد فهذا بحث جليل الشأن في شاعر عظيم الخطر . وانا لنرجو أن تتوالى بحوث طلابنا في النواحي الأخرى لشوقي ، وفي الموضوعات التي خلقت دار العلوم لبحثها واحيائها ؟

محمد مهدي علام

حلمية الزيتون { ٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٢
٢٥ مارس سنة ١٩٣٤ }

تصدير

بقلم الأستاذ الكبير السباعى السباعى
أستاذ الأدب العربى وتاريخه بدار العلوم العليا

لشد ما كنت شديد التوق أن يعمد الأدباء إلى شعر أمير الشعراء « أحمد شوقى بك » ، فيحدوا نواحيه ، ويتعرفوا عن كل ناحية بواعثه إليها ومصادرها من نفسه ؛ حتى نستخرج كنوزه الدفينة ، ونفتض غاباته العذراء ؛ فنكون بذلك قد عملنا على استدامة نبع غادره فينا وولى إلى ربه سلسبيلا جاريا لا نزال ننهل منه ونعل ، كما نكون به أيضا قد قمنا ببعض الواجب نحوه رحمه الله استدامة لذكره ووفاء بحقه .

ولقد شاءت عبقرية « شوقى » ومن شأنها التمنع على الخمول والنسيان ؛ أن يكون ماتقت إليه واقعا مفعولا ، فسمعنا ماسمعنا عن شعره عقب موته فى تأبينه وفى غير تأبينه . ولكنه كان عاما ثم لم يلبث أن انقطع .

وما كادت النفس تألم حتى أقدم أحد أشبال الأدب من طلبة دار العلوم العليا وهو « أحمد محمد الحوفى أفندى » على ناحية هامة من شعر شوقى إقداما كالذى أريد ، هى ناحية النسيب فعكف على دراستها عكوف الباحث المستنبط ، ذى القدرة الموهوبة

على إدراك مايريد . وكان من ذلك أن أخرج من أبحاثه فيها رسالة أسماها « وحى النسيب فى شعر شوقى » قرأتها له فوجدتها لبنة متينة البنية محكمة الوضع لبناء نرجو أن يتكامل رفعه على شعر شوقى حتى يكون قبة رفيعة الذرا وكعبة كثيرة القصاد . ثم استمعته يحاضرنا فيها فأذا هو جامع إلى قلم الكاتب المحرر قدرة الخطيب المحاضر .

لذلك رأيت إعلان رأيى هذا فى كلمتى هذه ، وفاء بحق الطالب النجيب الذى ينميه التشجيع على أستاذه البار الذى يسره فى طلبته الفواق والنبوغ ؟

السباعى السباعى .

كلمة المؤلف

باسم الله ، وعلى هداه ، أخرج بحثى هذا ؛ لا أرتجى منه رجعا ، ولا أدعى له عصمة ؛ فالكمال لله .

باسم الله ، وعلى هداه ، أذيع رأيى هذا ؛ لا مقلدا ، ولا متحاملا ، ولا محابيا ، ولا متأثرا بالرأي وهواه .

باسم الله ، وعلى هداه ، أذيع هذا البحث الضئيل الذى ولدفى ثلاث ليال بعد ارفضاض مأتم أمير الشعراء إلا كلمات قلائل أضفتهن إليه فيما بعد . وظل منذ ذلك الحين سجينا لا تسمح له الظروف بالحرية ولا بالحياة .

ثم شاء الله أن ألقيه فى « دار العلوم العليا » على سمع من ناظرها سعادة الوالد أحمد عاصم بك ، وجمع من أساتذتى الأجلاء وأخوانى الأعزاء ، فرضيه الجميع وأقروه ، ورغبوا أن يكون فى أيديهم مطبوعا ؛ فكان ما أرادوا . وآمل أن أرضيهم بطبعه كما أرضيتهم بوضعه ، وأقدم بين يديهم معذرة إذا كنت قد حذفت من هذا البحث بعضه ؛ فأن السخاء على المطبعة بالأقوال يستدعى جودا عليها بالأموال .

ليس غرضى فى هذا البحث أن أتحدث عن غزل شوقى من حيث معانيه وأساليبه ، ولا تقليده أو ابتداعه ، ولا رأيه فى

طهر الهوى أو اتضاعه ؛ وإنما أريد الحديث عن منبع هذا الغزل وباعثه . فان كان التقليد فأحر به أن يكون فى زوايا النسيان ، لا فى الصحائف والأذهان ؛ وإن كان الهوى ، والصدق فى بثه ، والحديث عن خوالج النفس ولواعج القلب ، فهو قمين بالبحث والدرس جدير بالحياة . ويسرنى أن هذا هو ما استقر عنده رأيى ، واستراح إليه يقينى ، ولا أنسى أن أقرر أن من الادلة ما هو للترجيح لا للتأكيد. ليس شوقى منسيا حتى أذكره ، ولا مغموطا حتى أنصره ، فانه ملء السمع والقلب ؛ ولكن له أمانة فى جيد الأدب أرجو أن أؤدى قسطا منها ، ويدا على دار العلوم أرجو أن يكون بحثى هذا من جوازيها .

وبعد فأشكر والدى عاصم بك على ثقته ورضاه وجهوده التى يغرسها فى هذه الدار ، وأشكر أساتذتى الذين استمعوا محاضرتى وشجعونى ، وأشكر إخوانى الذين حيونى وآزرونى ؛ وأرجو من الله العناية والتوفيق .

احمد محمد الحوفى

١٩٣٤/٤/١٠

الغزل والنسيب والتشبيب

رأى صاحب اللسان – رأى الأستاذ محمد هاشم – رأى ابن رشيق – رأى الدكتور طه – رأيى الخاص

الذى اخترته من لسان العرب هو أن التشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء فى أوله ، والغزل هو الحديث إليهن واللهو معهن ، والنسيب هو هذا أو ذاك .

أما أستاذنا هاشم فيقول فى كتابه « الأدب العربى وتاريخه » : « الغزل هو الاشتهار بمودات النساء ، وتتبعهن ، والحديث إليهن ، والعبث بذلك فى الكلام ؛ وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة ؛ والتشبيب هو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ، ومساءلة الاطلال ؛ توخيا لتعليق القلوب ، وتقييد الاسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام .

وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يصفه من التجنى ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء » .

ثم يقول « وأكثر الناس لايفرقون بين هذه الثلاثة ، وبعضها عندهم يخلف بعضا » .

والدكتور طه حسين نحا هذا النحو الأخير فهو يقول فى كتابه حديث الأربعاء « ينقسم الغزل أيام بنى أمية ثلاثة أقسام مختلفة : أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الافلاطونى العفيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون ، والثانى غزل الاباحيين وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة ، والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمرارا للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين ، أريد به الغزل الذى لايقصد لذاته وإنما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر : إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها » .

ثم يقول فى موضع آخر « نحسب أنا قد وصفنا مع ماتحتمله صحيفة سيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية » وهو بذلك يشير إلى الغزل فى كلامه السابق .

وابن رشيق يقول فى كتابه العمدة « وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب مافى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء وأن ذلك استدراج لما بعده » « ومن عيوب هذا الباب ـ يقصد

المدح ـ أن يكون النسيب كثيرا والمدح قليلا » .

فهو يعبر بالألفاظ الثلاثة عن معنى واحد كما ترون .

وأما رأيي فهو أن التشبيب ما يقال عن المرأة والحب فى معرض الكلام عن شىء آخر فهو ليس موجها إلى المرأة ذاتها ، وأما الغزل فهو ما يقال عن المرأة والحب موجها إليها هى فهو مقصود لذاته وليس سلما إلى غيره ، وأما النسيب فهو هذا أو ذاك .

وفى هذا الرأى سهولة ، وتوجيه مقبول لما فى لسان العرب وما فى كتاب أستاذنا هاشم .

على أن شوقى نفسه خلط بين هذه الكلمات فى مقدمة ديوانه القديم ثم اتخذ من النسيب عنوانا للغزل فى ديوانه الجديد .

وإذا فأنا إذ أتحدث عن النسيب فى شعر شوقى فإنما أتحدث عن الغزل والتشبيب جميعا ، خاضعا فى ذلك لرأيي فى معانى الكلمات الثلاث .

ـ٢ـ الحب والشعر

الحب ، ربيع النفوس ، سر العظمة الخفى ، الشعر ، صلة الحب بالشعر ، حب الجمال ، جمال المرأة ، أثرها ، الحب والشعراء ، الحب وشوق

واذا قلت الحب فانما اقصد الحب العفيف الطاهر ، وهو بهذا المعنى سلطان يقسرنا على الايمان بان فى العالم شيئا وراء المادة هو الروح ، وما الحب إلا من الروح وللروح ، وما الحب إلا انجاذب وتواد وتعاطف وتآلف بين روحين .

الحب عماد هذا الكون وناموسه الأول ، فالذرات والكهارب تنقسم إلى سالبة وموجبة انقساما يجعلها تتآلف وتندمج اندماج المؤثر والمتأثر وامتزاج روحين تتشوق كل منهما إلى الأخرى حتى تجدها .

للكون ربيع يزوره كل عام زورة ، فيجىء مختالا طلقا ضاحكا ينفح الأرض بأزهاره وأوراقه وجماله ، وينضح فى الكون عبقا ينبه الحس ويرهف العواطف ؛ وللنفوس ربيع يزورها ما حييت ينفحها بأزهار أعطر وأندى من أزهار الأرض ، ويغذوها فتصدح وتخفق ، وتصفو وتتألق ؛ ويشرق فى النفوس فيشرق الربيع

الزمنى على الأرض متخذا شارته من شارته ، وشامته من شامته ، ونغمته من نغمته ، فترتفع إلى عالم الأحلام ، وتدرك المعانى الخفية التى لا تعبير عنها فى لغة الانسان ، وتبصر من الجمال ما لايتسنى لغير المحبين وحدهم أن يدركوه ويبصروه

فالمحبون يحسون إحساسا دقيقا فيبصرون حيث يعمى غيرهم ويسمعون حيث يصم ، وتتفتح قلوبهم للوحى حيث يختم على قلوب الصم البكم ، وينكشف الجمال لبصائرهم حيث تعشى بصائر غيرهم فهم أحب الناس للجمال ، وأسلمهم أذواقا ، وأكثرهم تقديسا للمتع الروحية ، ولا أرى هناك خيرا من أن أسوق اليكم هذه الكلمة فى الحب عن « بيلاسكو أبانيز » فى روايته « الموتى يحكمون »

«ان الحب عبقرية كعبقرية الفن والشعر لاتسمو اليها كل طبيعة ، ولا يستمتع بجمالها كل من يتحدث بها ، فكل انسان يحسب أن له حقا فى أن يحب . والحب فى الحقيقة كالمواهب والجمال والحظ نعمة نادرة لا يستمتع بها إلا نخبة قليلة ممتازة من الناس إلا أن الوهم ــ لحسن حظ المحرومين — يتسلل هنا لمداراة هذا التفاوت الظالم ، فلا يختم انسان حياته الا وهو يحلم بشبابه ويكن له الحنين والأسى ، ويزعم لنفسه أنه قد عرف الحب حق عرفانه وما كان الذى عرفه إلا قبسا من سورة الشباب (١) »

---

(١) الأستاذ العقاد

والحب لا يعرف عقلا ولا معقولا بل هو عاطفة عاصفة تحكم ولا تحكم تسيطر ولا تقاوم ، وأستطيع أن أتصور العالم وهو حافل بالحب غنى بالعواطف ملىء بالوجدانات ، ولكنى لا أستطيع أن أتصوره وهو يعج بالعقول فحسب ، ويصطخب بالآلات فحسب ويتخم بالمادة والواقع فحسب وأحر به حينئذ أن يكون الجحيم الذى لا جحيم بعده ، والسعير الذى تتلظى فيه النفس والقلب جميعا . وقد وشى إلى عربى بأن ابنه يحب فقال دعوه فانه يلطف وينظف ويظرف . والعقل المجرد من العاطفة عقل متبلد ، فاتر متزمت ثقيل ، يتخذ من السعة ضيقا ، ومن الأمل يأسا ، ومن البهجة كمدا ، ويشقى لانه يقيس كل ما فى هذه الحياة الحافلة بألوان العواطف بمقاييس المادة الجامدة الميتة منكرا ما وراءها من قوى ولو أنصف لأنكر أى مادة لا تختاج عليها عينه أو تتسمعها أذنه أو تتحسسها يده .

يقول الكاتب المجرى «هنريك رالف» : « والعجب فى أمر الانسان أنه يقدم على أشد المغامرات المادية خطرا ولكنه يجبن ويتراجع حيال مغامرات القلب والعاطفة ، يحب العظمة فى المادة وينفر منها فى الروح ، يمجد الطيار البطل ويسخر من العاشق الشهيد ، يصفق للوصولى الظافر ويهزأ بصرعى المثل العليا ، ولكن هذا الانسان مفتون بالحب وإن كان يتظاهر بمسايرة الفلسفة العصرية المادية ، فالروايات الخيالية — السينمائية — لا تكاد

تصور غير الحب العفيف ، والقصص التى تأثرت عقب الحرب بآراء العلامة النمسوى « فرويد » فى الحب وبواعثه الجنسية أخذت تتحرر من هذه الوصمة وتقرر شاعرية الحب وطهره ، والحق أن الشعر لم يمت فى هذا العصر كما يعتقد الكثيرون ، ولكنه غادر القصائد واندس فى القصص . وإذا فالفرد يحاول أن يسمو بالحب فوق الشهوة كما يحاول العالم والفيلسوف والفنان أن يسمو بتفكيره فوق الظواهر » (١) .

والحب هو الذى يلهم الفن والعبقرية والنبوغ ، وفى ظلاله يلين الصعب ويسهل العسير ويذل المستحيل ؛ وهو قوة معنوية تجعل من الجبان شجاعا ، ومن الخامل نابها ، ومن الغبي ذكيا ؛ ثم هو الجناح الذى حلق بكثير من العظماء إلى ما بلغوه من سمو ورفعة ونباهة شأن .

وإذا التبس عليك سر العظمة فى عظيم فثق أن الحب هو الأول فيها والاخير .

والشعر سمو فى العواطف ، وترفع عن قيود المادة ، وإدراك لما لا يدركه العامة وكثير من الخاصة . ثم هو تصوير للغائب

---

(١) هلال مايو سنة ٣١ . الاستاذ ابراهيم المصري . بتلخيص وتصرف .

المحجب فى ثوب المفهوم المدرك ، وماسمى الشاعر شاعرا إلا لأنه يشعر بالهمس حيث ينام غيره على الضجيج والصخب .

فالحب والشعر توأمان ، والحب والشعر صنوان فى النفس متعانقان ، وإن كان حب ولاشعر فان الشعر فى هذه الحال عميق فى النفس يغرد به القلب ولكن لايصوت به اللسان

وجمال المرأة : أغلى محاسن هذه الدنيا لأنه الجمال الحى الواعى ، فحب المرأة هو حب لأغلى ما فى الوجود لأنه « يوقظ القلب ويذكى الشعور ويبعث كوامن الوجدان فينفتح لما حوله ويرى مالم يكن يراه ويستوعب ما كان يلمحه بطرفة العين ويستحسن ما كان فى غفلة عن حسنه قبل أن يرى الدنيا فى ثوبها الجديد(١) »

فالمرأة روضة أنسنا وريحانة قلوبنا أينما تظهر ، وروح الحياة وجمال الوجود أينما تخطر ، وجمالها يسبي ويستخف أجحد الناس قلبا وأجمدهم عاطفة فيؤمن قبل سواه أنها من السماء لا من الأرض . وحتى « الصوفية » يجعلون المرأة مثالا يبثونه أشواقهم ولواعجهم ، فيتحدثون عن سحر العيون ورحيق الشفاه وجمال الوجوه وغير هذا مما تختص به المرأة دون سواها . وهم يريدون بذلك معانى أخرى ، ولكن الذى أريد تقريره هو أن الصوفيين الزاهدين الورعين عجزوا عن تمثيل تشوقهم وتصوفهم ومعانيهم

(١) الأستاذ العقاد

المختلفة فاستظلوا بمثال خيالى للمرأة « إن غيبة المرأة عن المجتمع هو علة ما نكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش وجهومة فى البيت وسآمة فى العمل وفوضى فى الاجتماع .

« هجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء أو الهباء فى الهواء نحيا حياة الهوام والتشرد فلا نطمئن الى مجلس ولا نستأنس لحديث .

فاذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندى روح الحديث ، وفى الحفل مجمع الأفئدة فهيهات أن يكون لنا مجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة .

مجتمعنا بغير المرأة أعرج ، لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لان حدة العواطف تنقصه ، خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه .

لاحظ مجلسا حضرته امرأة تجد الحركات تتزن ، والاصوات ترق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقى ، والذوق يسمو ، والاحساس يدق . ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمل سمته فى عين المرأة ، ويحسن صوته فى أذن المرأة ، ويسوغ رأيه فى عقل المرأة ، والأخلاق المكتسبة تبتدىء بالتطبع وتنتهى إلى الطبع (١) » .

---

(١) الأستاذ الزيات .

استمعوا إلى شوقى حيث يقول:

خلق الله من الحب الورى وبنى الملك عليه وعمر

وحيث يقول عن لسان زينون:

بنى ليس بالفتى إذا أحب من عجب
من لم يحب لم يؤد للشباب ما وجب

وعن لسان كليوباتره:

الحياة الحب والحب الحياة هو من سرحتها سر النواة
وعلى صحرائها مرت يداه فجرت ماء وظلا وجنى

وإذا كان الحب يكاد يكون صفة لازمة للنفوس الحية فماذا عساه يكون بالنسبة إلى الشعراء ؟؟

والشعراء هم رسل الطبيعة على هـذه الأرض نتلقى عنها ما يوحى اليهم . الشاعر أدق الناس شعورا وأصدقهم حسا وأنبههم عاطفة ، يعبد الجمال ويتبعه حيثما حل وأينما ارتحل ، فلاجرم أن يكون الشعراء طلائع الأحياء فى تقديس الجمال والولع بمنابعه وأول من يفقه سر جمال المرأة فيسمو الى حبها . فالحب هو القيثارة الأولى التى يشدون عليها ، فما أعرف شاعرا بدأ شعره بغير الغزل وما أعرف شاعرا لم يغزل فى حياته وان غلبت عليه صفات أخر.

وشوقى شاعر مطبوع من صغره فنان فى شعره ، ولقد كان حساسا غاية الحس يقظ العواطف ذكى الفؤاد فهل أحب المرأة ؟؟

هذا ما أريد أن أثبته

٣- الادلة على حبه

رأى الأستاذ العقاد — كلمة الدكتور هيكل بك — رأيي وأدلتي عليه

قال الأستاذ العقاد فى مقاله عن شوقى يوم بويع بأمارة الشعر «ما نظن أحدا يزعم أن شوقى محب ، فان غزله كله من طراز ذلك الغزل المصطنع الذى تستهل به قصائد المديح ، تمهيدا لما بعده وحكاية للمتغزلين من الأقدمين ، وليس فى شعره القديم ولا الحديث أثر يدلك على مرارة فى هذه العاطفة ، أو على سورة الحب التى تلتهب بها قلوب العاشقين .

وقال الدكتور هيكل بك فى مقاله عقب صدور الجزء الثانى من الشوقيات « أسارع بأن شعر شوقي فى المرأة ليس شعر حب ولا عاطفة »

وعلى كثرة ما كتب عن شوقى فى حياته وبعد وفاته لم يتعرض أحد لدراسة غزله أهو نبع من القلب والعاطفة أم ادعاء وصناعة اللهم الا هاتين الكلمتين العابرتين ، لا يزكيهما دليل ولا يقيمهما سند .

ولكنى أومن بغير ما يؤمن به أستاذنا العقاد والدكتور هيكل وأؤكد أن الحق فى جانبي وأعتقد أن من ورائى أدلة وأسانيد .

(ا) غزله فى الصبا والكبر

ضرورة البث — ديوان شوقى القديم حافل بالغزل ـ لماذا غلب التشبيب على شعره أوائل حياته — ما يستنتج من حذفه بعض الغزل ، نماذج من غزله ، بين الغزل والمدح ، شوقى يثبت بيده حبه . غزله فى كبره ، الكبر والحب ، تسجيله حبه بيده ، الذكرى ، التنقل فى الهوى .

فى الانسان رغبة إلى الاعلان عما فى نفسه ، فهو قد يكتم الحب زماناً ، ولكنه لايستطيع أن يكتمه أبدا ، وهو قد يضن بكلمة واحدة من سره على الناس ولكنه ينفضه كله لو احدمنهم .

وهو حين يعلن حبه تهدأ لوعته وتبرد حرقته ولو بعض الشى .

قال كارليل « لايمكن أن يوجد ملتن صامت غير مجيد »

وقال رابوبرت « لا يمكن أن يوجد بيتهوفن أو موزارت صامت لايطرب ولا ميخائيل انجلو أو روفائيل يرى ولايصور »

وأقول لايمكن أن يوجد شوقى الفنان المحب يخفق قلبه بغير الدم ولايشكو أو يحن أو يتوجع .

ولقد كنت أظن أن شوقى لم يقرض الغزل إلا فى ديوانه الجديد ورواياته ، ولكني رجعت إلى ديوانه القديم الذى طبعه

وهو فى أخريات العقد الثالث ؛ فوجدته حافلا بقصائد هى كلها أو جلها فى ديوانه الجديد .

ولقد غلب التشبيب على شعره القديم لأنه كان بلبل القصر فكان شعره وقفاً عليه ، وكان عليه أن يفرغ إلى ولى نعمته ولا يخلو إلى الحديث عن نفسه ، وكانت صلته بالقصر لا تيسر له أن يتحدث عن المرأة أو الحب فى قصيد مستقل ؛ ولذا فقد انتهز المديح فرصة يتحدث فيها عن قلبه .

وفى وسعكم أن تتصوروا هذا من قول شوقى نفسه فى مقدمة ديوانه القديم (ثم طلبت العلم فى أوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنى مسئول عن تلك الهبة — يريد الشاعرية — التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه . . . . ثم جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جيد المعانى وحديث الأساليب بقدر الامكان إلى أن رفعت إلى الخديوى السابق — يقصد توفيق — قصيدتى التى أقول فى مطلعها .

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

وكانت المدائح الخديوية تنشر فى الجريدة الرسمية ؛ وكان يحرر هذه أستاذى الشيخ عبد الكريم سلمان ، فدفعت إليه القصيدة وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح ، فود الشيخ لو أسقط المدح ونشر الغزل ، ثم كانت النتيجة أن القصيدة

برمتها لم تنشر .

فلما بلغنى الخبر لم يزدنى علما بأن احتراسى من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان فى محله وأن الزلل معى إذا أنا استعجلت) .

فهنا ترون شوقى قد حاول أن يغرد عن نفسه لنفسه فوجد الفرصة لم تسنح بعد ، ووجد اتصاله بالقصر وتطلعه إلى أن يكون شاعره عقبة فى سبيل طفرته التى أرادها .

وأكثر من ذلك أن شوقى كان قد غزل غزلا غير الذى نقرؤه فى ديوانه ولكنه أسقطه عند الطبع وهو نفسه يقول (على أن ما جمع فى الشوقيات ثم طبع ليس هو كل ما قيل ، فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن فى الزمن الأخير ؛ فأما ما أسقط عمدا فأكثره من قولى فى زمن الصبا الذى لا يؤمن فيه على المرء الغرور ، ولا يسلك الفتى فيه سبيلا إلا وهو مضلل عثور ، وقد خشيت أن يقع مثل ذلك فى أيدى الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ، ويكون إثمه أكبر من نفعه ، لكنى حرصت على ذكر بعض الشىء كما يحرص الانسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب)

شوقى وهو لم يشرف على الثلاثين يتحدث عن غرور شبابه ويخشى أن ينشر شعرا قاله فيه فيفسد أخلاق الناشئة ! !

فياعجبا ، وما العقد الثالث إلا شرخ الشباب وعنفوانه، وما هذا الذى أسقطه شوقى من ديوانه الا غزلا حارا خشى الشاعر أن ينم عما بنفسه ، وليس لائقا بشاعر القدم أن يكون غزلا يتحدث عن الحب والنساء ، وأؤكد أن غزله الذى حذفه من ديوانه القديم أدل على حبه مما أبقاه ، وهو مصور واضح لحوادث الهوى ولواعج الغرام ، بل ان حذف هذا الغزل برهان على الحب الذى تتوالى البراهين على إثباته

على أنى مورد الآن شيئا من شعره فى صباه لتستبينوا صدق الحب وحرقته .

خدعوها بقولهم حسناء	والغوانى يغرهن الثناء
أتراها تناست اسمى لما	كثرت فى غرامها الأسماء
إن رأتنى تميل عنى كأن لم	تك بينى وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام	فكلام فموعد فلقاء
فلقاء يكون فيه دواء	أو فراق يكون فيه الداء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا	نتهادى من الهوى مانشاء
وعلينا من العفاف رقيب	تعبت فى مراسه الأهواء
جاذبتنى ثوبى العصى وقالت	أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى	فالعذارى قلوبهن هواء

ثم استمعوا إليه يذكر غاب بولونيا :

ياغاب بولون ولى   ذمم عليك ولى عهود
زمن تقضى للهوى   ولنا بظلك هل يعود
حلم أريد رجوعه   ورجوع أحلامى بعيد
خفقت لرؤيتك الضلو   ع وزلزل القلب العميد

إلى أن يقول :

نسرى ونسرح فى فضا   ئك والرياح به هجود
والطير أقعدها الكرى   والناس نامت والوجود
والغصن يسجد فى الفضاء   وحبذا منه السجود
والنجم يلحظنا بعين   ما تحول ولا تحيد
حتى إذا دعت النوى   فتبدد الشمل النضيد
بتنا ومما بيننا   بحر ودون البحر بيد

وفى مكنتى أن أعرض عليكم صورا أخرى ولكنى أكتفى بهذه الصورة.

لله فى الخلق من صب ومن عان   تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى
صونى جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى
أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا   لم يتخذ شركا فى العالم الفانى
السر يحرسه والذكر يؤنسه   والشهب حوليه بالمرصاد للجانى
ينساب فى النور مشغوفا بصورته   منعما فى بديعات الحلى هانى

إذا تبسم أبدى الكون زينته ... وإن تنسم أهدى طيب ريحان
وأشرقى من سماء العز مشرقة ... بمنظر ضاحك اللألاء فتان
عسى تكف دموع فيك هامية ... لا تطلع الشمس والانداء فى آن

* * *

قلب بواد الحمى خلفته رمقا ... ماذا صنعت به ياظبية البان
أحنى عليك من الكثبان فاتخذى ... عليه مرعاك من قاع وكثبان
غربته فوهى جنبي لفرقته ... وحن للنازح المأثور جثمانى
لارده الله من أسر ومن خبل ... إن كان فى رده صحوى وسلوانى
دلهته بعزيز فى محاجره ... ماض له من مبين السحر جفنان
رمى فضجت على قلبى جوانحه ... وقلن سهم فقال القلب سهمان
ياصورة الحور فى جلباب فاتنة
وكوكب الصبح فى أعطاف إنسان
مرى عصى الكرى يغشى مجاملة
وسامحى فى عناق الطيف أجفانى
فحسب خدى من عينى ما شربا
فمثل ما قد جرى لم تلق عينان

هذا العرض اليسير السريع لغزل شوقى فى صباه الذى أباح نشره يعطينا فكرة عن غزله كله ، ولو أن المقام يتسع لتحليله لجللته ، وانكم لتحسون فيه صدق العاطفة وجمال التعبير .

وإذا وازنا بينه وبين مدائح شوقى إذ ذاك لوجدنا فى الغزل حرارة العاطفة ، وقوة الأسر ، ونضج الهوى ، وسموا فى الأسلوب والمعنى . فشتان بين معنى توحى به العاطفة ويلهمه الحب ، ومعنى يقتنصه العقل ويحوكه الواجب .

ولا يكلفنى إثبات ذلك أكثر من عرض نماذج من مدحه ، قال يمدح الخديو توفيق

يامولى الأحسان معذرة | أعجزت رب الشعر والخطب
هيهات يسلو عن ثناك فمى | من بعد لثم الخمسة السحب
أو تترك الأقلام فيك يدى | بعد استلام الركن والحجب

وقال

عم البرية فيض راحته التى | تسخو فتسخر بالسحاب الممطر
وقضى على الاعدام بالاعدام إذ | شهدت بذاك مواهب كالأبحر
والقطر أصبح باسما يختال فى | حلل المسرة والسعود الأوفر

وقال يمدح الخديو عباس

تحبك يابن توفيق قلوب | لغيرك ظهرها ولك العميم
وترجو أن تعيش لها نفوس | اذا تبقى لها يبقى النعيم
عن اللذات صامت لم تجادل | فأما عن نداك فلا تصوم

* * *

على أن شوقى يثبت بيده حبه ، فهو يخاطب قلبه تحت عنوان «الذكرى» فيقول «من البر ياقلب أن تذكر ، فمل بى على الفائت

المندثر ، ولاتأل ذكرى ولاتدخر .

هـلم ننشر مطوى الصفحات ، ونقرب نازح اللذات ، بعيشك قل لى من علمك رد الأحلام ؟ ، ورجوع القهقرى فى نواحى الأيام ، ومن رسم لك الألمام بدمنة عيش أو برسم غرام ومن علم الدم وصل الحبال ، وحمل اللحم ما يوهن الجبال ، من الحنين إلى سالف خال أو البكاء على دارس بال . ومن علمك أن تتحدث ، وتقلب الأقدم والأحدث ، وتذكر الصبا وأيامه وواديه وآرامه وبساطه ومدامه » (١)

لقد تحدث شوقى نفسه عن حبه فى صباه . وليس أصدق من حديث المحب عن حبه ، ولقد عرضت عليكم صورا من غزله فى شبابه ، لمعت منها بينات على أنه كان حافـلا باستجابات القلب ونداءات العاطفة .

وما الشباب بغير حب ؟ إنه كالحياة بغير شباب ماض أو حاضر وحياة بلا شباب هى جـذوة خامدة خاملة ، وشباب بغير حب بلاهة وعمه وموت .

أريد الآن أن أعرض عليـكم نماذج من غزله فى كبره ، وقبل أن أعرضها ، وقبل أن أوازن بين غزله فى رواية المجنون وبين غزل المجنون نفسه ، أريد أن أقول قولة موجزة فى حب

---

(١) أسواق الذهب

الكبر أهو ممكن ؟ أم أن الكبر يمنعه .

يحسب الكثيرون أن الحب من سمات الشباب ، وأن مابعد الشبيبة ضعف فى الشعور وتبلد فى العواطف وتمهيد للموت ، ولكنى لاأوافق على هذا كله . فقد ينقضى الشباب كله ولا حب وقد يعرض الحب فى الرجولة والكبر ،وحب الكبر مر لأنه حب وحسرة وغيرة وشك ، ولقد يكون فيه تقديس للحب ليس فى الشباب ، ففى الشباب سورة واحتدام وفى الكهولة هدوء واتزان وقناعة عن جوعات الجسد الفانية .

وإذا كان الحب قد يعرض فى الكبر لمن لم يحب فى صباه أفلا يكون أخلق به أن يعرض لمن أحب وغزل ؟؟ !! بلى

وهل شوقى عجب فى ذلك ؟ لا ليس عجباً وليس أول من أحب فى كبره ولن يكون آخرهم .

«فتوماس هاردى» الشاعر الانكليزى والروائى الذائع الصيت الذى كان متشائماً عاش حتى بلغ السابعة والثمانين ، وكان من عجائبه أن قصر شعره على الغزل بعد أن نيف على السبعين ، وقد رضى عن شعره قراؤه واستزادوه ، فقد كان جيدا مقبولا ، وكان من أسباب شهرته الذائعة بعد اشتهاره بالرواية وحدها فى سن الشباب (١) .

---

(١) ملخصة من مقال للأستاذ العقاد

وقد كانت حياة «ميرابو» فى شبابه مضطرمة ثائرة بعلاقته الغرامية مع امرأة وهبها أكبر شطر من حياة الشباب وخلع عليها من شهرته ما خلد اسمها مع اسمه ومن أجلها حوكم وحكم عليه بالسجن ؛ بعد هذا كله عاق قلبه فى كبره بأخرى أنسته الأولى بما أفرغت على قلبه من سحر غرامها حتى طلق زوجته .

ولقد كان «جيته» شغوفاً بالمرأة ؛ يعلق بها قلبه متى راقته حياته فى شبابه ورجولته وشيخوخته ، حياة حب مضطرم ؛ وكان هذا الحب هو سر العبقرية فى أدبه ، فان أبلغ ماشعر وما نثر هو حديث عن هذا الحب . والحق أن غرامه كان يطير به إلى إلى سماء الخلود من حيث لا يدرى .

أحب عشر نساء ، أكثرهن بعد الأربعين من عمره ، ولقد كانت شيخوخته كشبابه مضطرمة بالهوى ، فأحب مرتين فى أوائل عقده السابع وأحب وهو فى الرابعة والسبعين فتاة فى كارلسباد فى الثامنة عشرة ، ولم ترض أمها أن تزوجها منه ، فوجد لذلك وحزن ، وآمن حينئذ أنه هرم ، وأن الشباب قد ذهب لا إلى رجعة ونفث ذلك فى عدة مقطوعات غنائية .

وأحب « أميل زولا » الكاتب الفرنسى العظيم وهو فى الخمسين وأملى قصة غرامه على زوجه فى روايته «الدكتور بسكال» وقد صدرها بما يأتى : « إلى أطفالى الأعزاء الذين كتبت من

أجلهم هذا الكتاب أهدي هذه القصة حتى إذا ما قرءوها يوما من الأيام عرفوا مقدار الحب العظيم الذى أكنه لأمهم» مخاطباً بذلك أولاده من حبيبته .

وكان ميشيل انجلو يحس رغبة ملحة فى إراحة صدره على رأس محب محبوب ؛ ولكنه كان وحيدا إلا من الخيالات والرؤى ملىء القلب بشتى العواطف ما خلا الحب ، حافل الذهن بأطياف النساء تمر تباعا ولا قدرة لواحد منها على التشبث بذهنه واحتلاله والاقامة فيه .

ثم التقى ذات صباح فى روما وهو فى الحادية والستين بامرأة بهرته فأحس فجأة أن ماقد كان يحلم به من كمال فى الجسم والروح هو الآن حى يترقرق من هذه العيون الحالمة وينسكب على هذا الجسد المتسق البديع ، وتفتح فؤاده وسرت وحشته ، وأذعن وأحب وكان شيخاً اشتعل رأسه شيباً فاستشعر الخجل من هوى يرجع به إلى طور الشباب ، وهم بالفكاك من هذا الحب ، ولكن مرأى حبيبته كان يبدد عزماته ويجدد شبابه ، فلم يكن بد من أن يحب وأن يمنح حبه صبابة حياته ، وجعل يغزل فيها ويستلهمها الفن والجمال .

وهو الذى يقول «ترى ماذا حل بى ؟ كيف لم يعد فى طاقتى الاحتفاظ بهدوئى ، إن القلب الذى أضمه فى صدرى يكاد يقتلنى

ولاسبيل إلى خلاصى منه إلا بأن أستسلم اليه» (١)

ليس شوق اذاً بدعا فى أن يحب كهلا ، وليس بدعا فى أن يكون فى غزله وهو شيخ تلكم النغمة الساحرة ، والتعبير عن المعانى الخافية والخوالج الحارة .

اسمعوا اليه وهو يقول :

يامن نغار عليهم فى ضمائرنا	ومن نصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين اليكم فى خواطرنا	عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا الى الصبر ندعوه كعادتنا	فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
اذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا	حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا	للشامتين ويأسوه تأسينا

ثم استمعوا له وهو يقول أيضا

ياجارة الوادى طربت وعادنى	مايشبه الاحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى	والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة	غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلى وجوهها وعيونها	ووجدت فى أنفاسها رياك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا	بين الجداول والعيون حواك

---

(١) تلخيص من « الفكر والعالم » بتصرف

وذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ساعدى فطواك
ودخات فى ليلين فرعك والدجى   واحمر من خفريهما خداك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عينى فى لغة الهوى عيناك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد   جمع الزمان فكان يوم لقاك
ويقول :
بأبى وروحى الناعمات الغيدا   الباسمات عن اليتيم نضيدا
الرانيات بكل أحور فاتر   يذر الخلى من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجرا   الناهلات سوالفا وخدودا
اللاعبات على النسيم غدائرا   الراتعات مع النسيم قدودا
حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها
فى الوصف حسنا ما استطعت مزيدا
لو مر بالولدان طيف جمالها   فى الخلد خروا ركعا وسجودا
أشهى من العود المرنم منطقا   وألذ من أوتاره تغريدا
ثم اسمعوه يبث حبيبه همه وقد عاد من غيبته
ردت الروح على المضنى معك   أحسن الأيام يوم أرجعك
مر من بعدك ماروعنى   أترى ياحلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى
مطلع الفجر عسى أن يطلعك

وبعثت الشوق فى ريح الصبا ... فشكا الحرقة مما استودعك
يانعيمى وعذابى فى الهوى ... بعذولى فى الهوى ماجمعك
أنت روحى ظلم الواشى الذى ... زعم القلب سلا أوضيعك
موقعى عندك لا أعلمه ... آه لو تعلم عندى موقعك
أرجفوا أنك شاك موجع ... ليت لى فوق الضنى ما أوجعك
نامت الأعين إلا مهجة ... تسكب الدمع وترعى مضجعك

ولكن الظروف الحسنة تأبى إلا أن يسجل شوقى نفسه حبه فى كبره كما سجله فى شبابه

فهو يقول سنة ١٩١٩

ياظبية الرمل وقيت الهوى ... وإن سعت عيناك فى جلبه
هذى الشواكى النجل صدن امرأ ... ملقى الصبا أعزل من غربه
صياد آرام رماه الهوى ... بشادن لابره من حبه
شاب وفى أضلعه صاحب ... خلو من الشيب ومن خطبه
واه بجنبى خافق كلما ... قلت تناهى لج فى وثبه
حملته فى الحب مالم يكن ... ليحمل الحب على قلبه

ولعل أشهى ما أقدمه لحضراتكم من غزله فى كبره تلكم القصيدة التى صاغها قبيل وفاته والتى كانت مدعاتها انه دعا بلبلا

من بلابل مصر الغردة الى مأدبة فأخلفت الموعد ، فبرم بالساعات الجافة الحائلة اللون المرة الطعم البادية الكآبة ، فنفث برمه وقلقه فى مقطوعة منحها مخالفة ميعادها لتغردها ، فرجعتها أول مرة وهو يحتضر فى فراشه ، والناس يصفقون إعجابا واستحسانا ، وأمير الشعر يجود بالرمق الاخير .

وانى أنقلها هنا اليكم ، مستقاة من مصدرها الذى غرد بها ، وقد نشرت بعد ذلك بشهور فى «الرسالة» وفيها تبديل واختلاف

يا حلوة الوعد ما نساك ميعادى عز الهوى أم كلام الشامت العادى
كيف انخدعت بحسادى وما نقلوا أنت التى خلقت عيناك حسادى
طرفى وطرفك كانا فى الهوى سببا عند اللقاء ولكن طرفك البادى

* * *

تذكرى هل تلاقينا على ظمأ ؟ وكيف بل الصدى ذو الغلة الصادى
تذكرى منظر الوادى ومجلسنا على الغدير كعصفورين فى الوادى
والغصن يحنو علينا رقة وجوى والماء فى قدمينا رائح غاد
تذكرى قبلة فى الشعر حائرة أضلها فمشت فى فرقك الهادى
وقبلة فوق خد ناعم عطر
أبهى من الورد فى ظل الندى النادى
تذكرى قبلة من فيك أجعلها من اللقاء الى أمثاله زادى
تذكرى موعدا جاد الزمان به
هل طرت شوقا وهل سابقت ميعادى

فنلت مانلت من سؤل ومن أمل
ورحت لم أحص أفراحى وأعيادى
لاتكتمى الوجد فالجرحان من شجن
ولا الصبابة فالدمعان من واد
وأرسلى الشجو أسجاعا مفصلة
أو رددى من وراء الأيك إنشادي

ولنفرض جدلا أن شوقى لم يحب فى كبره وان كانت حياته الخاصة تنم عن هواه ، وغزله يخفق بما تخفق به قلوب الشباب، فهل معنى ذلك أن أيام الصبا انمسحت من خياله ، وان الحب طار من بين اضلاعه ؟! لا ، ولكنها مرارة الذكرى وحرارة التخيل ترجع الماضى نارا ، وتنتزع منه صورة ألاقة فتانة ، يتملى فيها الشاعر فيسبح فى عالم الآمال المنقضية والأحلام الذاهبة ، ويذكر الصبا وأيامه ، وأحداثه وآرامه ويقرن آمل الماضى الى يأس الحاضر ، وحياة الشباب الموارة الزخارة بحياة الشيخوخة الجديب المنهارة فينقم على الزمن ويضطغن على السنوات العجاف ، فيشرع ينتقم ويود لو يصارع ولا ينهزم ، فيتخذ من ذكريات الماضى سلاحا يطعن به الكبر ، ومجالا للتصابى والصغر ، وهو اذ يجمع الى حرارة الذكري الامل فى الانتصار ، يفيض عنه الغزل الحار الناضج الصادق ويجمع الى فتاء الشباب براعة التجايل

وشوق على ماقى كبره من متع وصلات يحن إلى الصبا فيقول .

صحا القلب إلا من خمار أمان — يجاذبنى فى الغيد رث عنانى
حنانيك قلبي هل أعيدلك الصبا — وهل للفتى بالمستحيل يدان
تحن إلى ذاك الزمان وطيبه — وهل أنت إلا من دم وحنان ؟
إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة — ولم تدكر إلفا فلست جنانى
أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها — ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مباعد — وأنت خفوق والحبيب مدان
وأيام لا آلو رهانا مع الهوى — وأنت فؤادى عند كل رهان
لقد كنت أشكو من خفوقك دائبا — فولى فيالهفى على الخفقان
سقاك التصابى بعد ماعلك الصبا — فكيف ترى الكأسين تختلفان ؟ !

* * *

فهو يحن إلى الصبا ، ويعرض إلى بعض احداثه الغرامية ، ثم يقرر أنه مازال فتيا قويا فى ريعان شبابه ، وإذا فلا عجب فى أن يحب .

لقد مر حافظ بك ابراهيم وهو فى الحادية والستين بدار فى الجيزة درج بين جدرها وشهدت فى شبابه هوى ، فأزجى مشهدها إليه هذه المقطوعة الحية النابضة .

كم مربى فيك عيش لست أذكره
ومربى فيك عيش لست أنساه

ودعت فيك بقايا ماعاقت به من الشباب وما ودعت ذكراه
أهفو إليه على ما أقرحت كبدى من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العين طيعة والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عونى على وجد أكابده ومر عيش على العلات ألقاه
إن خان ودى صديق كنت أصحبه
أو خان عهدى حبيب كنت أهواه

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به والهفتى ونضوب الشيب أغلاه
كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت
منه السوابق حزنا فى حناياه

لم أدر ما يده حتى ترشفه فم المشيب على رغمى فأفناه
قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرا ففى الأسر ذل كنت تأباه
فقلت ياليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندى وأحناه
بدلت منه بقيد لست أفلته وكيف أفلت قيدا صاغه الله
أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففى الموت أسراه

* * *

فشاعر النيل وقد ألم بمدرجة الشباب ، حن إليه ، وتاق إلى عهوده ، وصفق قلبه فى ضلوعه بذكرى الهوى ، وانحدرت فى

دموعه حسرة الشيخوخة المجدبة .

ولقد سئل ذو الرمة كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ، فقال كيف ينقفل دونى وعندى مفاتحه ، فقيل له وعنك سألناك ماهو ، قال الخلوة بذكر الأحباب .

وقيل لكثير كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة فيسهل على أرصنه ، ويسرع إلى أحسنه .

ودخل عمر بن أبى ربيعة المسجد الحرام فرأى شابا يقفو أثر فتاه فعاب عليه ذلك فقال إنها ابنة عمى : فقال هذا أشنع لأمرك ، فقال أريد أن أتزوجها فأبى عمى إلا أن أقدم لها مائة من الابل ولست أقدر على ذلك ، فرق عمر له وذهب معه إلى عمه ودفع إليه مائة من الابل .

وكان عمر حين أسن حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة فانصرف إلى منزله يحدث نفسه ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا ، فقالت له إن لك لأمرا ، وأراك تريد أن تقول شعرا ، فقال :

تقول وليدتى لما رأتنى ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ماشئت فارقت القرينا

بربك هل أتاك لها رسول — فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلى أخ محب — كبعض زماننا اذ تعلمينا
فقص على مايلقى بهند — فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وان تعزى — مشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها — لغير قلى وكنت بها ضنينا
أردت بعادها فصددت عنها — ولو جن الفؤاد بها جنونا

عمر بن أبى ربيعة ينقض عهده السابق ، فيشعر ويعتق رقابا ويدفع المهر ويذوب تجلده ؛ وينهار تناسيه ، لانه رأى محبا يقفو آثار حبيبته ، وسمع شكاته فشاقته وهاجته وذكرته ببعض ما تناسى

وذو الشوق القديم وان تعزى — مشوق حين يلقى العاشقينا

عمر بن أبى ربيعة يعود الى الشعر بعد عزم على هجرانه ، لان منظر العاشقين أثر فى جنانه وقد كان قبل ذلك يزمع على ترك أى حبيبة لغير هجران أو ملل فتطاوعه نفسه ولو جن الفؤاد بها جنونا .

فلماذا عصته عزائمه وخانه تجلده لدى ما شهد فى المسجد الحرام ؟؟

انها الذكرى تشعل الخامد ، وتوقظ الراقد ، وتبعث الماضى فى ثوب الحاضر الحى الشاهد .

ولقد صدق ابن حزم اذ يقول فى كتابه طوق الحمامة «وانك لتجد الانسان السالى بزعمه وذا السن المتناهية اذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب ، واهتاج له الحنين»

على انى لا أريد أن ادع هذا الفصل قبل أن أقرر أن شوقى كان كجيته وكثيرين من أعلام الفنون يتنقل من زهرة الى زهرة ويرتشف رحيق وردة بعد وردة . لانهم يحبون ما ترمز اليه المرأة أكثر من المرأة ذاتها ولان فى تغنيهم بامرأة واحدة ركودا وجمودا واسرا ، وهم أعزف الناس عن ذلك، ولانهم يجدون فى التنقل متعة ولذة وجدة وطرافة . ولهذا قلما يبقى الفنان على حبيبة واحدة يستوحيها ويستلهمها

وليس هذا بضائرى فى الغرض الذى أصبو اليه من هذه الرسالة ، فان أحدا لم يتهم «جيته» — على أنه كان نقله — بأنه دعى الهوى مصطنعه وشوقى يقول

كأنى والهوى أخوا مدام | لنا عهد بها ولنا اصطحاب
إذا ما اعتضت عن عشق بعشق | أعيد العهد وامتد الشراب

شتان بين أن يكون الشاعر أغلف القلب جامد العاطفة بايد الوجدان، يتصنع الهوى ويستعير رداءه، وبين أن يكون محبا سواء أكان يغرد فى خميلة لا يغيرها أم يوالى الخمائل ويبدلها

الغزل الأول مصنوع، والثانى مطبوع، الأول دخيل والثانى أصيل الأول فاتر كاذب مزيف متكلف ، والثانى قوى حى صادق مرهف .

(ب) بين غزله وغزل قيس

التقليد فى الغزل ، عجز المحب عن تصوير عواطفه ، المقلد أعجز منه عن هذا التصوير ، ليس شوقى مقلدا ، نماذج من غزلها وموازنة بينهما .

كان قيس بن الملوح مجنونا بليلى بنت عمه ، وقد غزل فيها غزلا من المثال العالى فى الأدب ، وإن فرضنا جدلا انه لم يوجد مجاراة لمنكريه وأن هذه الأشعار منحولة مدعاة ، فانا لانشك ـ والمنكرون موافقون ـ فى أن أولئكم الناحلين الذين تستروا فى رداء قيس كانوا هم محبين أيضا ، فغزلهم صادق موحى به من القلوب .

وإذا فأنا إذ أوازن بين الغزلين فانما أوازن بين شعرين واحد لا أزال أثبت صدقه ولم أنته بعد ، والثانى لاريب عند أحد فى صدقه .

قبل أن أعرض عليكم من الغزلين صورا ، أجيب على هذا السؤال وهو هل يستطيع خلى القلب أن يقلد معمود القلب فى غزله ويحاكيه فى بثه حتى لايتبين الأصيل من الدخيل ؟ ؟

أسارع إلى الاجابة عن ذلك بلا وألف لا .

فالحب نبع من العاطفة ، والعاطفة حاكمة لا محكومة تسيطر ولا تقاوم ، ولا سيما عاطفة الحب .

والحب لا يعرف عقلا ولا معقولا حتى يمكن التقليد فيه .

والغزل وليد الحب فلا سبيل إلى اصطناعه .

وإذا كان المحب كثيرا ما يعجز عن تصوير عواطفه والتحدث عن آلامه أو أفراحه أفلا يكون أحق منه بالعجز من يحاول تقليده ؟ ؟

يريد « جيته » فى روايته الصادقة الخالدة (آلام فرتر) أن ينفض بعض ما به إلى عزيزه « وليم » فلا تطاوعه الألفاظ ولا تواتيه المعانى ، على مكانته فى الأدب العالمى ومكان هذه القصة من تصوير الواقع المؤثر ، فيقول « أنا مثلوج الصدر سعيد إلا أننى مؤرخ غير مجيد ، إنها ملاك كريم ، أف ، ما غناء هذا القول ؟

كل يقول ذلك عن حبيبته ، إنه لا سبيل إلى أن أصف لك مقدار جمالها ولا أن أذكر سبب كمالها ، وقصاراى أن أقول لك إنها ملكت مشاعرى وذهبت بفؤادى كل مذهب » « كل ما أقوله لك عنها ليس إلا هراء مملا أو إيجازا مخلا ، لا يؤدى إلى ذهنك معنى من ذاتيتها ولا هويتها » (١) .

وشأن جوتيه فى ذلك شأن كل محب ، فالمحب يحس الألفاظ

---

(١) ترجمة الاستاذ الزيات .

باردة عيية عن تحمل ما به ، وإن كانت قبل ذلك فى نظره ملتهبة .

وإذا كان المحب يعييه الحديث عن نفسه ويعجزه تصوير مابه ، فهل ينتظر من خلى أن يجيد حديثا مصنوعا عن الهوى ؟؟

لقد ترون هذا جليا فى رواية « الشاعر » فإن سيرانو الذى كان يكتب إلى ابنة عمه تلك الكتب الرائعة باسم حبيبها « كرستيان » فيخلب لبها ببلاغته ويسحرها بتأثيره لم يصل إلى هذا كله إلا لأنه هو يحبها أكثر من غريمه .

فشوقى إذا فى قصة المجنون لم يك مقلدا ، بل كان محبا تلتهب النار بين أضالعه كما التهبت بين أضالع قيس من قبله .

وسهل على المحب أن يفهم نفسية المحب ويتقمص روحه ، ولا يفهم المحب إلا محب مثله .

ولكنى لا أريد بذلك أن شوقى رتع مع حبيبته فى سفح التوباذ ووهاد الحجاز وربا نجد ، وشم شذى العرار وساءل جبلى نعمان ورعى و « ليلى » غنم الأهل معا ، لا ، بل إن شوقى يتخيل أحداث ليلى وقيس أحداثه هو وحبيبته ، ويتمثل مواقف البدويين كأنها مواقف الحضريين ، فيسائل جبل التوباذ مثلا عن الحبيب كأنه يسأل النيل أو حدائق الجزيرة .

وإنى ناقل إليكم قصيدتين فى مناجاة جبل التوباذ ؛ الأولى

للمجنون والثانية لشوقى ليظهر لكم أنه كان محبا وكان غزله عن عاطفة قال قيس :

وأجهشت للتوباذ لما رأيته ... وكبر للرحمن حين رآنى

وإذرفت دمع العين لما رأيته ... ونادى بأعلى صوته فدعانى

فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك فى أمن وخفض زمان

فقال مضوا واستودعونى بلادهم

ومن ذا الذى يبقى على الحدثان؟

وأنى لأبكى اليوم من حذرى غدا

فراقك والحيان مجتمعان

فهو رأى التوباذ فأجهش وبكى وسأل عن ليلى .

فاستمعوا إلى شوقى فى هذا الموضوع نفسه :

جبل التوباذ حياك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى

فيك ناغينا الهوى فى مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا

وحدونا الشمس فى مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلع

وعلى سفحك عشنا زمناً ... ورعينا غنم الأهل معا

هذه الربوة كانت ملعبا ... لشبابينا وكانت مرتعا

كم بنينا من حصاها أربعا ... وانثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا فى نقى الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى

لم تزل ليلى بعينى طفلة ... لم تزد عن أمس إلا أصبعا

ما لأحجارك صما كلما   هاج بى الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعت الصبا   فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة   وتهون الأرض إلا موضعا

فشوق يدعو بالخير لجبل التوباذ ، مرتع الطفولة ، وملعب الحب ، ويدعو للصبا الحافل ، ويذكر للتوباذ أنه كان ظل الهوى ومنبعه ، وأنهما كانا يبكران اليه فيسبقان الشمس فى مطلعها ، وأنهما رعيا حواليه غنم الآل معا ، وأنهما بنيا من الحصى بيوتاً ثم انثنيا فهدماها كما يلعب الأطفال ، ويتحسر على أن آثارها عفت عليها الريح ولم تحفظها الرمال . ثم يذكر أن ليلى لما تزل فى خياله طفلة لم تستطل إلا قيد أصبع ، ثم يلدى الحجارة لأنها لا تستجيب نداءه ولا تسمع دعاءه ، ويتحسر على أن أيام الصبا والهوى ولت فليست راجعة . ولكن هذا الجبل أعز مكان عليه لأنه مراد حبه ، وأيام الرعى أجمل أيام فى عينيه لأنها جمعته وبنت عمه .

أى الغزلين إذا أنفذ إلى شغاف القلب ؟

اننى أدع الحكم لكم .

ثم اسمعوا قيسا وقد سمع اسم ليلى منادى به غيرها

وداع دعا اذ نحن بالخيف من منى
فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما   أطار بليلى طائرا كان فى صدرى

دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر

فقيس سمع اسم ليلى فهاجت احزانه ، وخفق فؤاده كأنما هاج فى صدره طائر ،

فاسمعوا شوقى إذا

ليلى ! مناد دعا ليلى نخف له نشوان فى جنبات الصدر عربيد
ليلى ! انظروا البيد هل مادت بآهلها وهل ترنم فى المزمار داود
ليلى ! نداء بليلى رن فى أذنى سحر لعمرى له فى السمع ترديد
ليلى ! تردد فى سمعى وفى خلدى كما تردد فى الأيك الأغاريد
هل المنادون أهلوها وإخوتها أم المنادون عشاق معاميد
إن يشركونى فى ليلى فلا رجعت جبال نجد لهم صوتا ولا البيد
أغير ليلاى نادوا أم بها هتفوا فداء لليلى الليالى الخرد الغيد
إذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلى وثاب ما صرعت منى العناقيد
كسا النداء اسمها حسنا وحببه حتى كأن اسمها البشرى أو العيد
ليلى ! لعلى مجنون يخيل لى لا الحى نادوا على ليلى ولا نودوا

شوقى سمع اسم حبيبته فوجب فؤاده ، وكأن البيد زلزلت بما كنيها ، واسمها كالسحر فى أذنيه ، لا يفتأ يتردد فى سمعه وخياله كأنه أغنية تترجع فى خميلة .

ثم تحرقه الغيرة فيتساءل عمن نادى أهو أخ أم عاشق ؟ إن كان عاشقا فلا كان له صوت يرجع . ثم يتساءل عمن نودى أهى

ليلاه أم غيرها ؟ ويفديها بالليالى الأخريات الغيد الحسان . وهو إذ يسمع اسمها يفيق من جنته ، ويثوب من سكره ، واسمها جميل سكب من جماله على النداء لحبيبه ، حتى كأن اسمها البشرى أو العيد . ثم هو يشك فى كل ذلك فلعل قرار حبيبته فى قلبه وخياله وتردد اسمها على مسمعيه وهم خيل اليه أن ما فى النفس واقع فى الخارج . وأنا لا أصدر حكما على هاتين الصورتين أيضاً وأدع لكم أن تحكموا .

ثم استمعوا إلى المجنون يناجى جبلى نعمان وكانت ليلى تنزل بهما .

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ما تنفست ... على نفس محزون تجلت همومها

فاسمعوا شوقى عن لسان قيس وقد أشرف على ديار ليلى .

ديار الحى من ليلى ... سلام من شج صب
على الحى على الدار ... على ليلى على الحب
غدا الركب على طيب ... كريح المندل الرطب
فيا ليلى عسى اليوم ... أبل الشوق بالقرب
يقولون بها غنى ... لقد غنيت من كربى

سلى تربك كم مرغت خدى على الترب
وكم جدت على الرمل ولم أبخل على العشب
بدمع مثل دمع الثكل مغروف من القلب

ذلكم غزل المجنون ، وهذا غزل شوقى ، كلاهما صادق اللهجة حار العاطفة حاد الشعور ، وان غزل شوقى ليربو بما فيه من حلاوة وما عليه من طلاوة ، الى العاطفة المشتعلة الحادة ؛ والسحر الذى يملك النفس ويبهر اللب ويشعل القلب .

فهل تريدون بعد هذا الذي يفيض عاطفة ويقطر حنينا ويتفجر عن نبع من الهوى الصادق ويلتهب ويلهب ، دليلا على أن شوقى فى غزله لم يك مصطنعا ، بل كان قلمه ريشة تستمد صورها من خياله ، ونورها ومدادها وحرارتها من قلبه ؟؟

غزل كالشباب ينضح آما لا ويهتز فى حلى فتانه
تسمع الحب فى نواحيه همسا يتناجى ويشتكى أشجانه
وتحس الهوى يرف حنانا شرك الحب أن تحس حنانه(١)

(١) أستاذنا على بك الجارم .

(ح) بصره بنفسية المحبين

أثر اتصال المصور بما يصور ، شوقى أجاد فى تصويره مواقف حب متعددة ، وتغلغل فى نفوس المحبين وعواطفهم ، صلة ذلك بحبه .

عالم بالنفوس ما غاص ميل　　فى خفايا النفوس حتى أبانه(١)

لا يستطيع الذى لا يحس الشىء أن يصوره ، ولا يستطيع أن يصوره تصويرا دقيقا إلا الذى يحسه بدقة وإحاطة ، فلا تحدث امرأة عن الأمومة حديثا صادقا مالم تك أما ، ولا يجيد الحديث عن الحياة الزوجية رجل ، لم يك زوجا .

ومن ذا الذى يشرح النفوس ويحللها ويعالجها غير علماء النفس ؟ ؟

وهل فى مقدور خلى أن يصور لنا نفوس المحبين تصويرا دقيقا ؟ ؟

إن ذلك افتئات على نواميس الطبيعة وقوانين المجتمع

يصف الكاتبان العدلان أو الشاعران المتراجحان ، مشهدا أيا كان فيبرع فى وصفه من له اتصال به ، ويكون الأبرع من

---

(١) أستاذنا الجارم .

يستعرض أطياف هذا المشهد وقد عرض له ، أو يستقى من عناصره الحاضرة فى نفسه ، فيجيد القول عن النعيم من تكتحل عيناه بمرآه ثم يكون أجود منه من تقلب فى أعطافه ومرح فى حماه .

وستجدون أن شوقى نفذ الى أعماق المحبين فرسمها ، ومرت به فى قصصه مواقف يحار الخلى فى فهمها ففهمها ، وشارك المحب فى أخيلته وأحلامه فأجاد الحديث عنها ، فهو إذا بصير بنفسيات المغرمين ، ثم هو اذا واحد من أولئكم الذين علقت بقلوبهم أحابيل الهوى .

يصور نفسية الحبيبة « كليوباترة » وقد وافاها حبيبها « أنطونيو » فتبتهج وتضع كل مافى القصر تحت إمرته وتنسى الغد وشؤونه .

مر بما شئت قيصر   وأشر كيف تأمر
لك قصرى وماحوى الـ   ـقصر كل مسخر
ليس شىء وإن غلا   عن حبيب يؤخر
لتكون ليلة   آخر الدهر تذكر
لا نبالى إذا صفت   بعدها ما يكدر
نحلم الحلم لست تد   رى بماذا يفسر

* * *

ويمثل على لسان أنطونيو خضوع النفس للجمال ، واستلاب الحب للنهى حتى نهى الفؤاد ، فى قوله يستغفر روما ويعتذر لكليوباتره

يا أم عذرك فى اتهام بنوتى ... باد وعذرى فى العقوق كذاك
لولا الجمال وفتنة من سحره ... ما حل فى قلبى هوى لسواك
صفحا كلوباتره قربت زلة ... قد كنت تغتفرين حين أراك
لما لقيتك فى الجمال وعزه ... قهرت قواى الظافرات قواك
فنسيت فى ناديك ذكر وقائعى ... وسلوت أيامى بيوم لقاك
سجدت لأعلامى الصوارم والقنا ... وأبى مهند لحظك الفتاك
قدت الجحافل والبوارج قادرا ... مالى ضعفت فقادنى جفناك
أخرجت أمرى واختيارى من يدى ... وتركتنى نفسا بغير ملاك
خلت السلامة فى نواك فذقتها ... فاذا الكوارث كلهن نواك
عاديت قومى فى هواك وأضرمت ... روما على الحرب من جراك
ضحيت بالدنيا وقلت رخيصة ... وبذلت أيامى وقلت فداك

ثم هو يصور لنا المحبة وقد شارفت الموت لا تزال تذكر حبيبها بل وتوصى الموت بجسمها خيرا لتلقاه نضرة فتانة كما كان يعهدها

ياموت لاتطفىء بشاشة هيكلى ... واحفظ ظواهر لمحتى وجلالى
ياموت طف بالروح واسرقها كما ... سرق الكرى عين الخلى السالى
حتى أموت كما حييت كأننى ... بيت الخيال ودمية المثال
وكأن إغماض الجفون تناعس ... وكأن رقدتى اضطجاع دلال
سر بى إلى أنطونيو فى نضرتى ... ووراء جلبابى وزينة حالى

ثم هى توصى وصيفتيها أن تطيباها وتزيناها وتلبساها حلة تروق فى عينى حبيبها ، توصى بذلك وهى تجود بنفسها ، فلم تنس أنطونيو حتى فى أحرج ساعها .

يا ابنتى ودى هلما ... زينانى للمنية
غللانى ... طيبانى ... بالأفاويه الزكية
ألبسانى حلة ... تعجب أنطونيو سنيه
من ثياب كنت فيها ... أتلقاه صبية

ويصور المرأة الجميلة المحبوبة المختالة حريصة على جمالها ، وإضاءة لونها ، وسحر جفونها ، ونضرة شفاهها ، حتى فى موتها ؛ وهو فهم عميق لغريزة المرأة لا يكتنهه إلا من أحبها .

فاسمعوا كليوباتره وهى تحاور أنوبيس الكاهن الأكبر :

هى ... ولكن أبى هل يصان الجمال ؟

هو ... نعم ولا يحول ولا يندثر

هى ... وهل تطفأ اللون ؟

هو　لا بل يضيء　كما رف بعد القطاف الزهر

هي　وهل يبطل سحر الجفو　ن ويبلى الفتور ويفنى الحور

هو　كعهد العيون بطيف الكرى

إذا الجفن ناء به فانكسر

هي　أبي ! والشفاه ؟

هو　لواقي الذبو　ل كما احتضر الأقحوان النضر

وما الموت أقسى عليها فما　ولا قبلة من عوادى الكبر

***

وشوق يصور نظرة المحب إلى ما حوله ، يراه كله جميلا ، تروقه مناظر الطبيعة ، ويحسن في نظره الكون من الحصاة إلى الجبل ، ومن العشبة إلى الدوحة ، ويرى ما حوله باسما ، تفتنه الأرض والسماء ، ونسيم الأصباح والأمساء ، وأغاريد الأطيار ، فيحيط بكل ذلك قلبه ويعيه ، ويخيل اليه أنه يتحرك في دمه فيوقظه ويحييه .

اسمعوه يصور الصحراء على لسان « ليلى » ، الصحراء الجرداء الصحراء الموحشة المخيفة ، الصحراء الميتة الكئيبة . ولكنه الحب يخلق من القفر خصبا ، ومن الوحشة أنسا ، ومن الموت حياة .

تقول ليلى لابن ذريح :

أتيت لنا اليوم من يثرب فكيف ترى عالم البادية

أكنت من الدور أو فى القصو ر ترى هذه القبة الصافية ؟

كأن النجوم على صدرها قلائد ماس على غانية

لها قبلة الشمس عند البزو غ والحضر القبلة الثانية

ونحن الرياحين ملء الفضاء وهن الرياحين فى الآنية

ويقتلنا العشق والحاضرا ت يقمن من العشق فى عافية

ولم نصطدم بهموم الحياة ولم ندر لولا الهوى ماهيه

وآنا نخف لصيد الظباء وآنا إلى الأسد الضارية

***

على حين تسخر «هند» من هذا الوصف، والافتتان بالصحراء فتصور البادية على نقيضه .

وكلتاهما محقة ؛ فليلى تحب فتشعر بالجمال يترقرق فى كل ذرة ، وهند لا تحب فهى تعمى حتى عن الجمال المعلن عن نفسه .

كفى يابنة الخال هذا الحرير كثير على الرمة البالية

تأمل تر البيد يابن ذريح كمقبرة وحشة خاوية

سئمنا من البيد يابن ذريح ومن هذه العيشة الجافية

ومن موقد النار فى موضع ومن حالب الشاة فى ناحية

وراغية من وراء الخيام تجيب من الكلأ الثاغية

وأنتم بيثرب أو بالعراق أو الشام فى الغرف العالية
مغنيكمو معبد والغريض وقينتنا الضبع العاوية
وقد تأكلون فنون الطهاة ونأكل ما طهت الماشية

ثم يصور المحب وقد صارت حبيبته مادة خياله شاخصة أمام بصره يرى مثالها فى كل شىء ، فى حديث (قيس) الى (ابن عوف)

أتبصر يابن عوف حى ليلى تدجج فى السلاح ولا تراها
فمالى لا أحقق غير ليلى وإن كثر السواد لدى حماها
لقد ألقى هوى ليلى حجابا على عينى فلست أرى سواها

* * *

ثم يصوره وقد دنا من ديارها فشحب لونه وارتهكت مفاصله وخفق قلبه ، وغنى لو تنبأ بقدومه

ما لساقى جرتها فتعالى انجرارها
ولقلبي يقول لى قد تدانى مزارها
كيف لا أهتدى لليـ لى وفى القلب نارها
ليت ليلاى نبئت أننى اليوم جارها

ثم يصور شك المحب فى ولاء حبيبته وحبها له ، شكا من نوع آخر غير الشك الذى يعترض سائر الناس . مبعث هذا الشك هو إحساسه العميق بأن حبه لا يعرف حدا ولا نهاية فلا مثيل له ولا شبيه ، فاذا قالت له إنها تحبه كحبه اياها أو أشد ،

عجب ودهش . يتمثل ذلك فى هذا الحوارين قيس وليلى:

ليلى : جعتنا فأحسنت ساعة تفضل العمر

قيس : أتجدين ؟

ليلى : مافؤادى حديد ولا حجر

لك قلب فسله ياقيـ س ينبئك بالخبر

قد تحملت فى الهوى فوق مايحمل البشر

ثم يعيي عن أن ينفض لها ما بدخلته من أشواق مبرحة

لست ليلاى داريا كيف أشكو وأنفجر ؟

أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر ؟

على حين أنه عشق المها والظباء والبادية الباسمة القمر، لأنها

بليلى مصبوغة الصور ؛ يسأل الفجر هل تنفست فى السحر ،

والريح هل جررت ذيلها العطر

حبب البيد أنها بك مصبوغة الصور

لست كالغيد لاولا قمر البيد كالقمر ؟

رب فجر سألته هل تنفست فى السحر ؟

ورياح حسبتها جررت ذيلك العطر

وغزال جفونه سرقت عينك الحور

ويصور المحب يلام فيزداد حبا ، ويكره النصح والنصيح ، لأن حبه أقوى وأسمى من أن يكون مجال نصح أو نقاش .

وبغضت النصيح إلى ليلى   وسد مسامعى عنه هواها

* * *

وينزح إلى ديار نائية عله يسلو ، فيسبقه طيفها ، ويكسو كل ما يرى ؛ عبثا كانت سفرته وهجرانه ؛ وضلة منه حسبانه وسلوانه .

تركت ورائى الشام لم أنتفع به	ولا هو من شوق القديم شفانى
وعدت الى نجد أقاسى صبابتى	ووجدى كأنى ما برحت مكانى
تركتك ليلى فانفجرت لياليا	مؤلفة الأشكال جد حسان
فلم يخل سيرى منك يوما ولا السري	ولم يخل من تمثالك القمران
على كل أرض من هواك سوارح	ملأن سبيلى أو ملكن عنانى

وأريد أن أختم هذا الفصل بذلك الموقف الرائع المعقد العنيف بين ليلى وقيس ، وقد هام فى البيداء حتى هدته النار فى قلبه إلى معبده وربع حبه :

هبط قيس حى ثقيف على غرة ؛ فارتابت ليلى فى صدق عينيها وظنت أنها أحلام المنام أو اليقظة .

أحق حبيب القلب أنت بجانبي   أحلم سرى أم نحن منتبهان ؟

أبعد تراب المهد من أرض عامر ... بأرض ثقيف نحن مغتربان ؟

* * *

فيجيب قيس بأن وطن المحبين هو حيث يجتمعان ، وأن أحب مكان إليه هو مكانها حيث تكتحل بمرآها العينان.

حنانك ليلى ما لنخل وخله ... من الأرض إلا حيث يجتمعان

فكل بلاد قربت منك منزلى ... وكل مكان أنت فيه مكانى

* * *

فتشكو إليه هزالها ، فرحة بهذا الهزال راضية عمن كساها به

ترانى إذن مهزولة قيس ؟ حبذا ... هزالى ومن كان الهزال كسانى

فيجيبها :

فداؤك ليلى الروح من شر حادث ... رماك بهذا السقم والذوبان

* * *

ثم يمتد بينهما الحديث إلى أن يريدها على الفرار معه حيث يعيشان فى مكان ناء منبت عن الأقدام ، حيث تغريد العصافير وظلال الأيك وعذوبة الجداول ، حيث يذكران الصبا وملاعبه.

تعالى نعش ياليل فى ظل قفرة ... من البيد لم تنقل بها قدمان

تعالى إلى واد خلى وجدول ... ورنة عصفور وأيكة بان

تعالى إلى ذكرى الصبا وجنونه ... وأحلام عيش من ددو أمان

* * *

حيث يتذا كران أيام الصبا ، وما تبادلا من قبل وهما متواريان خلف الشاء ترعى ، ولم يكونا يعرفان الهوى ولا ما يعترى القلب من خفقان :

فـكم قبلة ياليل فى ميعة الصبا ‏ وقبل الهوى ليست بذات معان
أخذنا وأعطينا إذ البهم ترتعى ‏ وإذ نحن خلف البهم مستتران
ولم نك ندرى يوم ذلك ما الهوى ‏ ولا ما يعود القلب من خفقان

* * *

ثم يطغى حبه على عقله ، فينسى أن ليلى فى ظل زوجها « ورد » ، ويشرع يستميلها إلى قبلة ، إذا ما التقت بها شفتاهما ضمنا السعادة والصحة ونعيم الجسد والروح ، وهما إذا ما تلتقيان يجتمع نعيم الحياة وغبطتها فى هذا اللقاء ، ويخفق قلباهما كأنهما قلوب أربعة فى الجوانح .

منى النفس ليلى قربى فاك من فى ‏ كما لف منقاريهما غردان
نذق قبلة لا يعرف البؤس بعدها ‏ ولا السقم روحانا ولا الجسدان
فكل نعيم فى الحياة وغبطة ‏ على شفتينا حين تلتقيان
ويخفق صدرانا خفوقا كأنما ‏ مع القلب قلب فى الجوانح ثان

ألا إن فقه النفس والتغلغل فى أعماقها ، وتصويرها هذا التصوير الناطق ، لا يتسنى إلا لمن ذاق الهوى واكتوى بناره ولذعه

(د) تداعى المعانى

تساوق المعانى ، الصلة بين المعنيين ، تداعى معانى شوقى إلى الحديث عن المرأة والحب ، لا صلة بين المعنيين أحيانا ، السبب فى ذلك

يغلب على شعر شوقى كلما وصف أو مدح ، أو حيا أو نصح نزوع إلى ذكر المرأة ، ولا تثريب عليه ، فهى مالئة نواحى ذهنه والمعانى يسوق بعضها بعضا ، والأحاديث تتساوق إلى ما ترضاه النفس وتحبه ، ولمناسبة صغيرة بين الشىء الحاضر والغائب المحبب ينسج الخيال خيوطا للشبه والاتصال .

ولهذا فان شوقى تكاد لا تخلو له قصيدة من حديث عن حب أو تشبيه بالمرأة .

اسمعوه فى قصيدة يصف فيها منظرا طبعيا

مر النسيم بصفحتيه مقبلا   مر الشفاه على خدود ملاح

والسرور فى الحبر السوابغ كاشف   عن ساقه كمليحة مفراح

والنخل ممشوق القدود معصب   متزين بمناطق ووشاح

فماذا ترون ؟ كل لفظة فى الابيات الثلاثة تتحدث وحدها وهو إذ يصف غاب بولونيا يجعل قسطا كبيرا منها حديثا عن حبه وقد تقدمت

وهو يصف مصر ويحن اليها وهو فى الاندلس فيقول .

لعب الدهر فى ثراه صبياً   والليالى كواعباً غير عنس

وفى قصيدة أخرى يقول :

وفى جيد الخميلة منه عقد   وفى آذانها قرط وساس

ويقول فى قصر أنس الوجود :

كعذارى أخفين فى الماء بضا   سابحات به وأبدين بضا

ويقول فى تشييعه الدكتور محجوب ثابت إلى الحجاز

وهناك عذرى الهوى   وحديث قيس والغزالة

وفى تحيته للطيارين الفرنسيين :

اجعلوها رسلكم أهل الهوى   تحمل الأشواق عنكم والغراما

واستعيروها جناحا طالما   شغف الصب وشاق المستهاما

يحمل المضنى إلى أرض الهوى   يمنا حل هواه أم شآما

* * *

ما العلاقة بين تحية الطيارين و ذكر الحب ؟

ما العلاقة بين وصف الطيارة واتخاذها رسول هوى ؟

لاشىء ، ولكن شوق تتداعى فى ذهنه المعانى ، ولايقصد هو هذا التداعى وإنما يدفع اليه دفعا .

يدفعه اليه الحب ، تدفعه اليه المرأة ، يدفعه اليه دم ولحم بين الضلوع يتسرب فى الدموع فيظنه ولى ويصفق فى الضلوع فيقول

آب ورجع .

نجيز تداعى المعانى وتساوقها إذا كانت مناسبة أو صلة وثيقة وقد نجيزها غير مرتابين إذا كان الداعى خفيفاً .

ولكن فى شعر شوقى تساوقا إلى التحدث عن المرأة والحب وليس المسوغ فى كثير من الحالات إلا طارئا عابرا عجلان ، بله قد لا يكون بين المعنيين تداع فى كثير ولا قليل . الحق إنه بذلك ، الحق إنه بما قبل ذلك ؛ الحق إنه بالجميع قد سجل حبه فيسر لنا أن نؤمن بأن قلبه وحى نسيبه ، وأن قلبه بالحب خفاق وقد شاركه الغزل فى وجيبه .

(هـ) الصلة بين الفن والحب

الفن ، الشعر الفنى ، الصلات بينهما ، حب الفنان للجمال ، شوقى يحب الجمال ، الجمال منوع لايجتمع إلا فى المرأة

الفن الصحيح هو الذى ينقل من الحياة ولكنه يضيف اليها ، هو الذى يقلد المادة ولكنه يهذبها ، يحاكى الطبيعة ومع ذلك يوفق بينها ويخرجها للناس مترجماً عما فى نفسه .

والشعر الفنى هو الذى يتسرب إلى أعماق النفس فيصفها ويحللها ، ويتسلل الى أعشار الضمائر فيتحدث عنها دون أن تنحسر موجته عند شاطىء المحسوس والواقع الذى لاتعمق فى النظر اليه .

وشوقى فى شعره ونظرته الى الحياة ووصفه مشاهدها فنان صنع وهو اذ نطبق عليه فلسفة الفن لايعتوره وهن أو انتقاص.

والعلاقة بين الفن والحب بينة ، فالفن هو النظر الى الحياة وما فيها نظرة عميقة متأثرة مدركة ، والتأثر بجمالها ، واليقظة الى محاسنها ومباهجها وانسجامها ، وان غفل الناس عن هذا وتساوى لديهم القبيح منه والمليح .

ثم ان كلا منهما يجنح الى الحرية ويكسر القيود المادية ، فالفن هو انطلاق النفس من إسارها وهو تفوق من الفنان على من دونه من المرجوحين فى يقظة النفس وشعورها ، وهو اقتدار

على إظهار العواطف والشعور فى مظهر خارجى سواء أكان بخط أم كلام أم تصوير أم صوت أم حفر أم شعر أم موسيقى ، وهو يستطيع أن يشرح مالا نراه ، ويخاطب القلب والعقل معا .

والحب هو الحرية بأوسع معانيها لأنه انطلاق الروح من أغلال المادة وأصفادها ، وغلبة على قيود الجسم والشهوة ، وتحليق فى السماء فوق الربا والرياض والغياض ، وترفع عن ضرورات الحياة وجوعات الجسد .

فلا غرابة أن يكون الفنان محبا ، بل من شيات الفنان وسماته حبه الجمال .

ثم إذا كان كثير من الفنانين والأدباء يستوحون الطبيعة كجان جاك روسو ، أو يستلهم الدين والتصوف كرابندرانات تاغور ، أو يفجر ينابيع الشعر والفلسفة من ذات نفسه كفردريك نيتشه ، فانهم جميعا مهما تتباين منابع وحيهم ، نزاعون الى المرأة يجدون فيها مصدر الوحى ، والصورة التى تجمع أفانين الجمال وتمثل ما فى الطبيعة من مختلف الأشكال والألوان .

ثم ان المرأة حلوة الحديث ، ملكية العشرة ، تسكن إليها نفس الجليس وتصفو روحه ويهدأ عقله ، وهذه كلها دواع تلهم الفنان وتهيىء له عنصر الانتاج والابتكار .

ولقد كان الروائى الروسى ايفان تورجنيف يقدس النساء

ويرى فيهن معين الفن ومبعث الأيحاء ، قبل أن يرى فيهن متعة الجسد ، وإشباع المادة . (١)

ولقد كان شوقى فنانا محباً للجمال ، يتحدث عن ذلك أمينه أحمد عبد الوهاب فيقول «كان يحب الجمال ويعنى به كثيرا سواء أ كان فى الانسان أو الحيوان أم فى النبات .

وكذلك كان يعجب بالجمال فى الخطوط فكان إذا ورد اليه كتاب ينظر فيه فاذا كان خطه رديئا قال لى اقرأه وأبقه عندك وذكرنى به ، ولوكان هذا الكتاب من صديق ، أما اذا كان الخط حسنا فانه يقرؤه بنفسه ويثنى على كاتبه وربما حمل هذا الكتاب معه أكثر من يومين وربما عاد فنظر اليه وان كان من سائل»

تستطيعون أن تتصوروا مقدار حب شوقى للجمال من هذا؛ وتستطيعون أن توضحوا هذا التصور أكثر من ذلك اذا سمعتم كلام شوقى عن صفات الزعامة بعد انصراف سعد باشا من عنده فى حفلة زفاف ابنه « على » «صفات الزعيم كثيرة ... ... وأن يكون الزعيم حسن الوجه ولم يرسل الله نبيا قبيح الخلقة قط» والجمال منوع يتراءى لنا فى الأشكال والألوان والأصوات والمعانى فاذا اجتمعت هذه الصفات تم الجمال واتسق ، وهى لا تجتمع الا فى المرأة ، فاذا أحب الفنان جمالا فهو أحرى أن يحب المرأة .

---

(١) بتصرف عن «صوت الجيل» للأستاذ ابراهيم المصرى

واذا أحب شـوقى الشاعر الفنان الجمال حتى فى الخطوط فانما هو حرى أن يحب المرأة جماع الجمال وطاقة الفتنة يستلهمها ، ويأنس بها ويتخذها رمزا لجمال الـكون ، وهذا ما كان .

(و) بيئته الاجتماعية والطبيعية وحياته

أثر الحملة الفرنسية فى مصر ، بعوث محمد على ، بعوث إسماعيل ، تبعية مصر للغرب ، أثر كل ذلك فى حياة المرأة ، سفر شوقى وأثره فى نفسه ، البيئة الطبيعية فى مصر والحب ، الحجاب والحب

كانت الحملة الفرنسية على مصر ، وما بعثته من مظاهر جديدة للحياة ، والبعوث التى أرسلها محمد على الى أوروبا ، وما بذرته فى مصر من بذور النشاط الذهنى ، وما أثارته من الاصلاح الاجتماعى ، ثم كان عهد اسماعيل وما والاه من تجديد ، وما أيقظ من ثورة على القديم وما بثه فى مصر من فكر ، وعلم ، وثقافة ، وما عقب ذلك من نضج واحياء ؛ ثم كان اتصال مصر بالغرب اتصال تبعية وتقليد ؛ كان ذلك كله صيحة فى أصماخ الرجعية والجمود ؛ وداعية الى الاصلاح فى كل الشؤون

والذى يهمنا فى بحثنا هذا هو أثر ذلك فى حياة المرأة والحجاب المبالغ فيه على الأخص وأثره فى نظرها الى نفسها ، فانتبهت الى أنها انسان ، وأن الرجل شريك وليس بسيد ؛ ونظر الرجل اليها على أنها شريكة وليست متاعا ومستجنا للأطفال وخادمة مطيعة ؛ وحاولت الخروج على الحجاب الصفيق ؛ ثم حاولت الاستمتاع بالعلم كما يستمتع الرجل .

وعاش شوقى فى هذا الوسط فتأثر به . وكان أن سافر الى أوربا ومكث فى فرنسا أربع سنوات ونصف سنة شهد فى خلالهن من المرأة أكثر مما نشهده الآن فى القاهرة ؛ ثم عاد يغرد فى قصر الملك ؛ ويرى فيه مثلما رأى فى باريس ؛ ويساهم فى الحفلات الراقصة التى كان يقيمها الخديو إذ ذاك ؛ ويصفها بما يشعر أن تاريخ ألف ليلة وليلة كاد يعيد نفسه .

أقول كان هذا كله من يقظة المرأة والحياة فى باريس والتغريد فى القصر وشهود مثل هذه الليالى الراقصة حافزا إلى أن يفكر شوقى فى المرأة ونسيما يسرى إلى القلب الجامد فينعشه فما بالكم إذا كان قلب شاعر ؟ ؟ قلت أن المرأة المصرية وأعنى الطبقة الراقية أفاقت من غفلتها قليلا وأنتم ترون هذا نفسه فى كلام شوقى إذ يقول فى مقدمة ديوانه سنة ١٨٩٧ « على أننى لا أستصعب فى مصر اليوم صعبا بعد ما علمت أن كثيرا من المخدرات فى العاصمة

أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافذ ؛ وأن إحداهن طردت خادما لها أرسلته يشترى نسخة من جريدة فأبطأ »

شوقى إذا يعيش فى مصر وقد انتبهت المرأة من غفلتها ؛ ونهضت من كبوتها ؛ ثم يعيش فى باريس أربع سنوات ونصف سنة ؛ والمرأة ثمة حرة منتبهة تنتهب اللهو انتهابا ؛ فلا ريب فى تهيؤ هذه الحال للهوى ؛ ولاسيما وشوقى مستهتر الشباب يصيب من لذات الحياة مايستطيب ؛ لايرده عن ذلك تأثم ولامبالاة .

ولكن هل البيئة الطبيعية فى مصر مانعة من الحب ؟؟

اللهم إن الحب عاطفة لا تتقيد بزمان ولا مكان ، وإن طبيعة مصر تكاد تكون أكثر البلاد ملاءمة للحب ، فهذه السماء الزرقاء الصافية ، والشمس المشرقة الوضاحة ، والقمر الباسم الناصع الجبين ، والنجوم اللوامع التى تناغى وتحدث ، وبساط الخضرة السندسى المبثوث على أديم الارض ، وحفيف الاشجار الذى يشدو بالهوى ، والطيور الصداحة التى تترنم بأناشيد الحب ؛ هذه كلها وما فى مصر من جمال الطبيعة وروائها وفتنتها مرتع خصيب للحب ينمى فيه ويزكو ويثمر .

وما على الذين يجحدون البيئة الطبعية فى مصر خصبها للحب ونضجها للهوى إلا أن ينصتوا الى أغانى القرى ومواويلها ؛ ففيها عواطف تلتهب ، وقلوب تحب وتجب ، وفيها منبع للشعراء لو

يستقون منه ، وصور لقصص بديع لو صيغ روايات لفرعت البيئة الطبعية فى مصر ما عداها فى خصبها للحب ونضجها للهوى .

وفى هذا يقول الاستاذ العقاد فى كتابه « ساعات بين الكتب »

« إن من سمع تلك الحلقات ، ومن سمع ذلك الغناء ، ومن لمس ذلك الجذل المحزون فى قلوب أبناء تلك الاقاليم صعب عليه أن يستمال الى الدلائل التى تنكر الشاعرية على سليقة المصريين ، بل من رأى فلاح الصعيد يسرع الى تسجيل كل حادث فى حياة القرية بالنظم والنشيد ؛ فاذا هو الشاعر ، وإذا هو الملحن ، وإذا هو المغنى والمنشد ؛ عز عليه أن يصدق التواريخ والأسانيد إذا هى قالت له يوما : إن هـذه النفوس خلو من ملكة الفن محجوبة عن وحى القصيد . ولقد تروعك بين تلك الأغانى الساذجة لمعات كخطف البرق من متعة الحياة وسكر الطبيعة وحنين المجهول ؛ ترتفع الى ذروة الشعر وتومض بين أسمى الجواهر التى تجلوها قرائح العبقرية والالهام »

* * *

ثم هل يمنع الحجاب الحب ؟

مهما يكن الحجاب مبالغا فيه ، ومهما يكن كثيفا سميكا ؛ فان اتصال الرجل بالمرأة ممكن وإن اقتصر على قريباته . على أن شوقى فى هذا العهد كان كروان القصر ، وكانت الطبقة المتصل بها

لا تتعنت فى الحجاب ولا تتشدد فيه

والواقع إن الحجاب ان لم يستوف خلق أسباب الحب مع السفور فانه أعمق منه أثرا وأنشط فى ايجاد التجاذب بين الرجل والمرأة . فالرجل يرى المرأة المحجبة سرا مستورا لا بد أن يكشفه ولغزا خفيا لامناص من حله ؛ وهو بغريزة الاستطلاع يسعى ويسعى لعرفان ماوراء هذا الخفاء من جمال وما خلفه من سحر ؛ وهو يخلق لذلك الأسباب ويجهد فى فتق الحيل ؛ وهنا يزول هذا الحجاب كما يتبدد السحاب قد نفذ منه شعاع الشمس المستعر . وينتصر الحب ويكون له القول الفصل فى أن ارادة القلب لاتصد ؛ وأن سيل الحب الهادر لا يرد . ولعل أهون مافى الحجاب المبالغ فيه من شر أن الرجل يحب المرأة التى تصادفه ؛ المرأة التى يتصل بها ؛ فلا يستطيع أن يتخير ، ولا مجال له فى الموازنة والمفاضلة ؛ ولا هو يستطيع أن يعرف مقدار ما فى هذه المرأة من مثل يحببها أو يكرهها ولهذا كان أكثر الحب فى مصر متسما بالغدر ونكث العهود ؛ لأن ذلكم الرجل الذى أحب المرأة التى استطاع أن يتصل بها لا يلبث أن يهجرها إلى أخرى أجمل وأفتن إذا نفحته الظروف بها ، والرجل والمرأة فى ذلك سواء .

فأنتم ترون من هذا أن كل ظروف شوقى كانت تيسر له الحب وأن الحجاب داعية إلى الحب كالسفور أو أشد .

ولكن الذين ينكرون على شوقى حبه لا يعززون انكارهم بدليل بل يرسلون دعواهم مطلقة وكأنها فصل الخطاب .

واذا فأحسبنى أبنت أن البيئة المصرية (طبعيــة واجتماعية) خميلة لا حرج على الحب أن يعشش على أفنانها ويصدح ويتغنى ؛ وأن شوقى كان يحيا فى روضة تغرد فيها أطيار الهوى وبلابله .

فمن البداهة بعد تصوير هذه الحياة ؛ وتصوير نصيب شوقى فيها أن نحكم بأنه أحب المرأة .

(ز) نزعته إلى الوصف وصلتها بالحب

شوقى وصف الطبيعة فى مختلف صورها ؛ فكان كالطبيعة إذ تتحدث عن نفسها ؛ وكان وصافا للطبيعة كأنها مشهودة لديه ؛ ماغاب منها وما حضر ؛ ماظهر وما استتر فهو يصور بألفاظه فيبلغ من نفوسنا مالا يبلغه رسام بألوانه ودهانه ؛ لأن هذه صامتة وتلك ناطقة ؛ هـذه مقيدة الأداء محصورة المعنى ؛ وأما تلك فطلقة فى تعبيرها منوعات معانيها . (١)

ولقد طغى الوصف فى شعره حتى كان كثير من قصيده فى النسيب وصفا للمرأة ؛ وهو ما يهمنا فى هـذه الرسالة . واذا كان شوقى يتشرب ما يصف حتى ليخرجه الى الناس أصدق وأبلغ من حقيقته فهو أحرى بأن ينفذ ببصيرته وبصره الى المرأة وما فيها من سحر وفتنة . وأرى أن تستمعوا اليه وهو يقول :

عرضوا الأمان على الخواطر ... واستعرضوا السمر الخواطر
فوقفت فى حـذر ويأ ... بى القلب الا أن يخاطر
ياقلب شأنك والهوى ... هذى الغصون وأنت طائر
ياثغرها أمسيت كالـ ... غواص أحلم بالجواهر
يالحظها من أمها ... أومن أبوها فى الجآذر

---

(١) حذفت رأى الأستاذ العقاد فى أن شوقى لم يكن متفطناً لأسرار الطبيعة ومحاسنها ؛ والرد عليه ؛ للاختصار .

ياشعرها لاتسع في هتكي فشأن الليل ساتر
ياقدها حتام تغدو عاذلا وتروح جائر

ويتضح ذلك أيضاً في وصف ليلة راقصة في قصر عابدين أيام الخديو عباس

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب
أو فم الحبيب جلا عن جمانه الشنب
أو يداه باطنها عاطل ومختضب
أو شقيق وجنته حين لى به لعب
أقبلت شموس ضحى مالهن منتقب
أنجم مطالعها عابدين والرحب
الحرير ملبسها واللجين والذهب
والقصور مسرحها لا الرمال والعشب
فالقدود بان ربى بيد أنها تثب
يلعب العناق بها وهو مشفق حدب
الرءوس مائلة في الصدور تحتجب
والنحور قائمة قاعد بها الوصب
والنهود هامدة والخدود تلتهب
والخصور واهية بالبنان تنجذب
سالت الأكف بها فهى أغصن نهب

ليس ذلكم الذي يصف المرأة ويبين مواضع الجمال فيها بغافل عن هذا الجمال الذي رسمه وصوره ؛ بل ليس غافلا عن هذا الجمال الذي بهرجه وزخرفه وزينه . وليس جامدا لدى جمال هو به مفتون والا فما وصفه ، وهو به معجب والا فما زانه وحلاه . بل هو شاعر أولا وقبل كل شيء يقدس الجمال ويقفو أثره ويهفو اليه فؤاده . مابالكم والجمال بين يديه ؟؟

ان وصف شوقي الكثير للمرأة ، وتصويره محاسنها ، وحديثه الحار عن مفاتنها ، دليل على أنه فهم هذا الجمال وتأثر به فأحبه

فهرست